الفصل السادس

دراســة مقارنـة
بين أخلاق الإسلام والأخلاق الفلسفية

إذا كانت الأمور إنما تظهر بأضدادها، فمن المفيد أن نطّلع على صور التخلق في مختلف العصور والحضارات، إن هذه الصور ذات فائدة مزدوجة فهي من جهة تمنحنا رؤية واضحة لبعض المفاهيم الأخلاقية المقترحة، وأخصها المفاهيم الفلسفية. وهي من جهة ثانية: تطلعنا على العوامل والأسباب التي جعلت الأخلاق الفلسفية نسبية وأدنى إلى الذاتية والمعرفة الشخصية. وهذا ما أدى في رأي الكثيرين إلى التنصل منها وإبدالها بالعلوم الإنسانية أو المسلكية: (مثل علم النفس وعلم الإجتماع وعلم الأقوام البشرية).

قوام المسألة الأخلاقية هو «التمييز بين الخير والشر» وبيان الطرق و الأساليب التي تعين الإنسان كي يحقق الخير وينأى عن الشر.

وقد نُظر إلى هذا التمييز من خلال مناظير مختلفة شتى، لعل أهمها منظاران أو وجهتان في النظر:

أ ـ منظار المؤمنين بالخير: (من أتباع الأديان والأنبياء بوجه خاص) و(من بعض الفلاسفة).

ب ـ منظار الملحدين من الدهريين والفلاسفة الوضعيين.

أ ـ **أما المؤمنون بالخير** وبقدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر فهم يرون: أن فكرة الخير والشر قديمة في الإنسان ومنبثة في صميم الفطرة الإنسانية، وأن الإنسان منذ كان إنساناً على الأرض كانت فكرة الخير بعض ما حفلت به طبيعته الممتازة السامية، يسمو بها عن جميع الطبائع الأخرى (من حيوانية أو مادية) وذلك لسببين إثنين:

- إمتلاك الإنسان العقل المميز والفكر السديد.

• ورحمة الله بعباده (فأنعم عليهم برسالات السماء) وهذا هو ما نعنيه حين سمينا كتابنا «أخلاق الإسلام بين الفطرة والفكرة».

ب ـ **وأما الدهريون وجماعة الفلسفة الوضعية** فيرون أن فكرة الخير والشر إنما وصلت إليها الإنسانية بعد تجارب طويلة وخبرات متنوعة، وأن ليس لها أي معنى قدسي في الطبيعة الإنسانية. إنها عندهم لا تعدو من الجمادات المنحطّة لم تكن تعلم شيئاً عن هذه الفكرة إلا بمقدار ما يعرفه عنها اليوم سكان الغابات من الضواري والوحوش. وكما يقول هوبز: «لم يكن الإنسان إلا ذئباً على أخيه الإنسان».

وقد ثارت خلافات واسعة بين فرقاء المؤمنين والدهريين. وعُني بعض الباحثين في إستقصاء هذه الخلافات حول فكرة الخير والشر لا من ناحيتها التاريخية بل من حيث ناحيتها الذاتية أو حقيقتها، فظهرت الفلسفات الأخلاقية أو المذاهب الفلسفية في الأخلاق. لقد سبقت الفلسفة العلم ولربما مهّدت له السبل كي يتكون.

ولهذا فنحن نستطيع أن نفهم العلم إذا فهمنا المعارف التي سبقته وهي: الفلسفة. لقد كان الفيلسوف في أحسن الأحوال عالماً غير متخصص، ولم يكن هذا عيباً فيه أو مأخذاً يؤخذ عليه، فالفترة العقلية كانت تقتضي مثل هذا النوع من المنهج الفكري.

لكن الخطأ بل الضلال الكبير الذي إنساق إليه الفكر الفلسفي هو جنوحه صوب التأمل الشخصي والإندفاع في تكوين المذاهب ولهذا فإن المذاهب الأخلاقية الفلسفية متعددة لاحصر لها، ولهذا رأينا أن ننتقي منها ونختار، فاخترنا نوعين فقط:

ـ نوعاً إيجابياً وجدناه قميناً بأن يخدم الأخلاق الإسلامية لتوازنه وحرصه على قضية الأخلاق، أو لتأثيره في بعض الأفكار التي عرفت في تاريخ الفكر الإسلامي أمثال: سقراط، أفلاطون، أرسطو ابيكيت، وأما لتأثيره بالاتجاهات الإسلامية بالذات مثل (كانت) الذي تقرأ له فتشعر وكأنك تطالع في فكر إسلامي.

ـ أما النوع الثاني من المذاهب الفلسفية فهو النوع السلبي الذي جنح بشدة في مناهضة التوازن الإخلاقي وذلك مثل ما قدمه السفسطائيون وارستيب وهوبس وميكافيللي، والمسلم الذي يطالع كتابات هؤلاء يشعر بأنعم الله تعالى عليه إذ هداه إلى الإسلام، ولم يجعله واحداً من الضالين أعداء الحق، والمناهضين للخير، فلنذكر قوله تعالى: {**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**} [البقرة: 257].

وها نحن نشير باقتضاب إلى بعض المذاهب الفلسفية.

السفسطائيون: كانوا فئة تتنقل في بلاد الإغريق همها إثارة المشكلات أمام الفكر والريبة والاستحواذ على عقول الناس وأموالهم، وقد اعتبروا كلاً من الخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل أموراً نسبية لا ثبات لها في نفسها ولا قوام، وإنما هي تقوم تبعاً للرأي الشخصي وجوداً وعدماً. وقد تزعم «كاليكلس» فكرة أن القوة وحدها هي الجديرة والتي يمكنها أن تجعل الخير شراً والشر خيراً، وإذن فلا حقّ ولا عدل ولا حرية ولا قيد ولا ضمير ولا فضيلة إلا بما شاءت القوة.

كانوا يقولون إن على الإنسان العاقل أن يسعى لمصلحته مهما كانت الوسائل التي يستعملها كما أن عليه أن يتغلب على خصمه بأية طريقة (بالجدل أو العنف).

وفي مثل هذا الجو الغائم من الريبة والشك، بثّ «بيرّون» تعاليمه بدعوى ألاّ شيء يُعد يقينياً، بل كل شيء يكتنفه الشك، إنه يرى أننا نظل على جهل بحقائق الأمور، وما ندري عن شيءٍ شيئاً. والطريف (أو المؤسي) في الموضوع أن «بيرون» عندما مات، لم يأبه لموته أحد من اتباعه أو تلامذته وبقي ملقى في الطريق وجميع من حوله يشك في موته! فكان موقفهم من موته «شكاً» مطابقاً للتعليمات التي بشر بها وتلقفوها منه، وقد رأى السفسطائيون أن الرجل إذا مُنح عقلاً قوياً يمكنه من اكتشاف طرائق للخروج على

القانون وإذا أُعطي شجاعة ممتازة تمكنه من دعم آرائه وتأييدها فلا شيء يمنعه من أن يخرج عن هذه القوانين يطلق لنزواته العنان، حتى لو كان في ذلك ما يضر الآخرين.

وقد أتى **سقراط** فجعل عنايته تنصب على إظهار عجز السفسطائيين وفضح غاياتهم ووسائلهم. وجملته الشهيرة «اعرف نفسك بنفسك» تعد واحدة من الأفكار اللامعة بحق. يقول سقراط «أليس من الواضح أن الإنسان يجد في هذه المعرفة أعظم الفوائد، وأن أكبر الأضرار تنجم عن جهل الإنسان بنفسه؟ ألا ترون أن كل من لا يعرف نفسه ويسرف باستعمال ملكاته وقواه، لا يعرف كيف يقدّر الناس والأشياء ولا يخرج من خطأ إلا ليقع في ضلال ويظل كاهله ينوء بالشقاء؟؟ إن معرفة النفس تعطي الإنسان الظرف الضروري ليستمد من الحياة ما يمكنها أن تجود به بل ما يجب أن تمنحه، وإذا تساءلنا عن غاية الإنسان من معرفة نفسه والتقيد بالفضيلة وجدنا أنه يهدف إلى «السعادة» والسعادة لا تنجم عن أمور مادية وإنما هي صورة لحالة نفسية أخلاقية، وتتجلى في الانسجام بين رغبات الإنسان والظروف التي يكون فيها.

قال سقراط يخاطب انتيغون: «الرفاه والأبهة والجاه، تلك أقانيم السعادة في نظرك: أما أنا فإني أرى أنه إذا كان من خصائص الإله أنه لا يحتاج إلى شيء، فإن مما يقربنا إلى الله أن لا يحتاج الإنسان منا إلا إلى قليل. وبما أنه لا أكمل من الله فإن القرب منه دنو من الكمال».

ويقول في موطن آخر: «ليست السعادة في اكتناز الذهب والفضة، وإنما
هي في سلوكنا الحكيم تجاه حاجاتنا ورغباتنا. إن من السعادة تقنين الرغبات وضبطها».

وأخيراً يجب ألاّ نغادر سقراط قبل أن نفيد من فكرتين وردتا على لسانه:

1- لا يعمل الإنسان الشر باختياره.

2- الفضيلة ثمرة العلم.

فسقراط يرى أن الإنسان لا يأتي الشر وهو يعلم أنه شر فيتصرف بالسوء بكامل وعيه وإنما يحدث تصرفه السيء حيث يكون جاهلاً به. إن أساس الأخلاق هو المعرفة فمن عرف الفضيلة وأدرك الخير حق الإدراك وجد نفسه بطبيعة الحال منساقاً نحو خيره أي نحو سعادته. إن العبارة الأولى يمكن تفسيرها بالقول: «لا ينصرف الإنسان عن سعادته باختياره» وأما العبارة الثانية فتلخص المذهب العقلي عند سقراط الذي يرى أن الفضيلة لا تنتج إلا عن العلم ومن صنع الفضيلة وهو جاهل بها كان غير مدرك لما يفعل، وكان أقل شأناً ممن يصنع الفضيلة وهو يدرك قيمتها ومبلغها من الفضل.

الأخلاق عند أفلاطون:

يبني أفلاطون الأخلاق على أساس نظريته في النفس البشرية. وعلى هذا الأساس أيضاً يقيم نظرياته في السياسة والتربية. وهو يعتقد أن النفس البشرية كانت خالدة في الأصل علوية سماوية ثم حدث أن هبطت من علياء سمائها إلى الأرض فتلبست بالمادة أو الجسد، وغدت تتألف من قوى ثلاث هي: قوة الشهوة والغضب والعقل. وهكذا تتدرج القوى في شرفها من الأدنى إلى الأعلى أحطها الشهوة (ومكانها البطن) وأوسطها الغضب (ومكانه الصدر) وأعلاها العقل (ويتوضع في الرأس). ثم إن لكل قوة فضيلتها، ففضيلة الشهوة العفة، وفضيلة الغضب الصبر أو الحلم، وفضيلة العقل الحكمة. وكل قوة تحرز فضيلتها إذا هي حكَّمت العقل، وهكذا فالعفة لا تكون إلا بسيطرة العقل على الشهوة، والحِلم لا يتكون إلا بسيطرة العقل على الغضب، أما الحكمة فتتأتّى من إدراك العقل ذاته وضبطه لنفسه. وهكذا فحين تتحقق فضائل النفس تفيض فضيلة رابعة هي فضيلة العدالة، فالعدالة ليست فضيلة قائمة بذاتها إذ لا توجد قوة خاصة بها إنما هي تتكون منذ أن يتقن الإنسان السيطرة بعقله على القوى الثلاث ويستخرج فضائلها.

أرسطو:

اتخذ هذا الفيلسوف مذهباً وسطاً في كل شيء، في الفلسفة والأخلاق والسياسة. وقد نال هذا الفيلسوف حظوة عالية عند العرب فجعلوه (بسبب اعتداله وتوسطه) بمثابة المعلم الأول وأطلقوا عليه هذا الاسم.

ففي الفلسفة اتخذ مكاناً وسطاً بين مثالية أفلاطون وحسية الماديين.

وفي الأخلاق عُني بتحليل السلوك النفسي عند الإنسان، فدرس أعمال الإنسان كما هي في واقعها، ثم درسها كما يجب أن تكون في نظره. وظل في ذات الوقت يحفظ للمثل الأعلى (الذي استقاه من معلمه أفلاطون) مكانته السامية ومع ذلك فقد عُني من هذا المثل بالجانب العملي التطبيقي فقيل بحق: أنه أنزل أخلاق أفلاطون من السماء وأقامها على الأرض ولم يكن الفرد وحده موضع اهتمام (أرسطو) بل عُني بدراسة كيف يجب أن يكون عليه حال الأسرة وحال المدينة.

فأتانا بعلوم تطبيقية ثلاث هي: الأخلاق ـ علم تدبير المنزل ـ علم تدبير المدينة.

الأخلاق تنصب على الفرد وعلاقاته بالآخرين.

وتدبير المنزل يدور حول قواعد الحياة الأسرية.

وتدبير المدينة يدور حول قواعد الحياة المدنية.

الفضيلة وسط:

كثيراً ما يُلقب مذهب أرسطو في الأخلاق بمذهب الحد الأوسط «إذ أن الإفراط على الأمر يعد خطيئة والتفريط أمر مذموم، أما التوسط فهو وحده الجدير بالتقدير والثناء». «لا تصنع شيئاً أكثر ولا أقل من اللازم وبذلك تستقيم أمورك على الفضيلة»، «إن الفضيلة

وسط بين رذيلتين فالشجاعة وسط بين التهور والجبن (وكلاهما رذيلة) والكرم وسط بين التبذير والشح، (وكلاهما رذيلة).

الفضيلة والسعادة:

ولم يشذ أرسطو عن غيره من الفلاسفة اليونانيين في اعتبار السعادة غاية الأخلاق وغرضها النهائي، بل أوضح أن السعادة تتوفر لأولئك الذين يحيون تبعاً لما توصي به الفضيلة الكاملة. إذن فالسعادة هي الغاية الأخيرة التي تكتفي بنفسها أي أنها الخير الأسمى الذي يُبتغى لذاته وهكذا يفرق أرسطو بين أنواع ثلاثة من الخيرات: خيرات الجسم (وتظهر في اللذة). خيرات المجتمع (وتظهر في الجاه والثروة) وخيرات النفس (وهي أعلى درجات الخير).

أما اللّذة فهي سعادة البسطاء والعبيد، وأما الجاه ومظاهر المجد فليست بالسعادة النهائية لأنها لا تُطلب لذاتها أولاً وهي مُلك لمن يوزعها لا لمن ينالها ثانياً. ولم يبق إلا خيرات النفس (من تأمل وتفكُر) وهي الجديرة بأن تسمى الخير الأسمى لأنها تجعلنا نتشبه بالإله الذي يكتفي بنفسه. ومع هذا فإن أرسطو لا يدعو إلى استبعاد أنواع السعادة الجسدية والاجتماعية لأن حرمان المرء منها يجعل حياته منغصة، وإذن. لا بد للمرء أن يكون متمتعاً بالصحة والثروة وانسجام الأسرة حتى يتسنّى له أن يتفرغ ويخلو إلى التأمل والتفكر.

اريستيب:

يرى أن غاية الإنسان القصوى هي اللذة مهما كانت، وإذن فيقتنصها بمجرد ظهورها: وهذا معناه اطلاق العنان للشهوات واقتناصها بأية وسيلة شريفة أو غير شريفة، أي أن هذا يعني أيضاً: الفوضى الأخلاقية والحياة بلا مبدأ ولا قاعدة. فانظر وتأمل واحمد الله على الإسلام.

ابيكتيت:

لم يترك كتاباً نقرؤه بل كان يناقش الناس على طريقة سقراط، ولقد لخص فلسفته الأخلاقية في نقاط أهمها:

1- يجب أن نميز في كل شيء بين ما في استطاعتنا وما لا يدخل في امكاناتنا، فالنوع الأول هو أفكارنا وحركاتنا ورغباتنا، والثاني مثل إحراز الصحة والرتب والمناصب. إذن فلنجعل سعادتنا فيما يدخل في استطاعتنا بأن نصنعه على خير وجه وأحسنه، ثم لا نكترث بسوى ذلك.

2- على المرء أن يكون حراً سيداً لنفسه، والحرية لا تكون بإرضاء الرغبات بل بضبطها والسيطرة عليها.

3- إذا رغبنا في شيء محبب أو متاع جميل فلنتذكر قيمته الحقيقية، ولنحاذر أن ننخدع فيه (آنية الفخار الجميلة قابلة للكسر، وإذا كسرت فهذا ينبغي ألا يكون موضع أسف...) هذه هي الحياة أنها فناء. ولا شيء يدعو للأسى أو التعلق الشديد إذا غابت.

4- إن دورنا في هذه الحياة شبيه بدور الممثلين في المسرح، يحدده لنا صاحب المسرح. وسواء أكان هذا الدور قصيراً أم طويلاً، ممتعاً أم غير ممتع، دور ملك أو شحاذ... فالدور دور وسينتهي وما علينا أن نقوم به، فبهدوء ونفس هانئة.

5- ليست الأشياء هي التي تفرحنا أو تحزننا، وإنما يفرحنا ويحزننا هو أفكارنا عن هذه الأشياء وإذا استطعنا معرفة هذه الحقيقة تجاوزنا الكثير من متاعبنا.

نماذج فلسفية أخرى في الأخلاق:

أخلاق (كانْت) Kant:

وقد كان قد تأثر بنزعته المثالية المتفاعلة مع مزاجه الصارم من جهة، وبالتربية الدينية التي تعهدته بها والدته من جهة أخرى.

وتتلخص فلسفته بالنقدية Criticism، والمقصود بالنقدية: أن على الإنسان أن يتبين قبل أن يناقش ويبحث في شؤون الحقيقة والوجود

ومما وراء الطبيعة: أن يستفهم هل في إمكان العقل أن يجول في هذه الميادين، وهل هو مكوّن على نحو يمكننا من إدراك حقائق الوجود وتناول ماهياته؟.. لقد خلص الفيلسوف (كانْت) إلى أن العقل عاجز في ذاته عن إدراك ماهيات الوجود وإن جل ما يفعله أن يصوغ معطيات الحواس في قوانين، وهي بدورها لا تعبر عن الوجود في ذاته بل كما ندركه أي الوجود في ذواتنا. وهكذا يرى أن العقل النظري (العقل الخالص) عاجز عن الخوض في موضوعات (ما بعد الطبيعة) وأبحاثها (الروح ـ الإله ـ ما وراء الحس ـ ومصير الإنسان).. ولكنه بعد أن نفى قيام علم يقيني لما وراء الطبيعة بالفكر التأملي (المحض أو الخالص) نجده قد عاد إلى أبحاث ما بعد الطبيعة عن طريق (العقل العملي): ومن ذلك قوله: «إذا كنت لا أدرك حقيقة الله بعقلي المحدود ـ فلا شيء يمنعني من أن استشعر عظمة الله بإيماني اللامحدود».

نظرية كنت في الواجب:

أقام (كانْت) Kant نظرية في الأخلاق على مفهوم دقيق هو مفهوم «الواجب اللاشرطي» أو الواجب المطلق ويمكننا أن نلخص أفكاره بالنقاط الآتية:

1- الإرادة الطيبة أو بلغة الإسلام (النية الطيبة) هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُعد خيراً على الإطلاق دون قيد أو شرط، هناك خيرات نسبية مثل الذكاء والشجاعة والمال والجاه والسلطة، فهذه خيرات ولكنها يمكن أن تصلح كوسائل لفعل الخير أو الشر على السواء. لنأخذ مثلاً فضيلة الشجاعة أنها فضيلة ولا ريب فيها ولكنها إذا وجدت لدى مجرم، فإنها تجعل منه مجرماً خطيراً لا حدَّ لاجرامه. وكذلك يكون الذكاء والمال. أما الإرادة الطيبة (أو النية الخالصة) فهي الفضيلة الوحيدة التي يمكن أن تُعد «خيراً في ذاته» لأنها تستمد خيريتها من ذاتها، أي باعتبارها غاية لا وسيلة.

2- الإرادة الطيبة غاية في ذاتها[1]، فهي لا تستمد طيبتها من النجاح أو بلوغ الغاية المنشودة بل إنها (أي النية الطيبة) تظل خيرّة ولو عجزت عن القيام بما تقصد إليه، ما دامت قد بذلت قصارها وتظل خيرة ولو لم تصل إلى السعادة. [ففي الإسلام: نية المرء خير من عمله].

3- الواجب لا العاطفة شرط الإرادة الطيبة: فكل عمل نقوم به بتأثير الرغبة أو الميل أو العاطفة لا يمكن أن يكون أخلاقياً، لأنه كان مشروطاً بهذه الأمور العاطفية، فإذا ذهبت العاطفة فأين النية الطيبة؟.

4- الفعل الأخلاقي أسمى من الفعل القانوني: فالإنسان الأمين الذي لا يسرق لأن القانون يطاله لا يطيع التخلُّق أو الأخلاق بل يطيع دافعاً هو الخوف من عقاب القانون. الأصح أن يقول المرء يستحيل عليّ وعلى الشرفاء أن يسرقوا.

5- قيمة الفعل الأخلاقي في النية: حينما يصدر الفعل عن الواجب فإن قيمته الخلقية لا تتوقف على النتائج التي أفضى إليها الفعل بل عن المبدأ الذي يستوجبه الفاعل في أدائه الواجب. إن قيمة الفعل الأخلاقي تكمن في مبدأ الإرادة أو النية بصرف النظر عما حققه فعلاً.

6- الزام القانون الأخلاقي وحتمية القانون الطبيعي: إذا سقط حجر فإنه يسقط حتماً حسب قانون سقوط الأجسام أما إذا دُفع إنسان للسقوط في هوة اللأخلاقية، فإنه يستجيب باستجابات حرة مختلفة. فمن الناس من يستيقظ ضميره في اللحظة الحاسمة قبل السقوط، ومنهم من يستيقظ بعد السقوط ومنهم من لا يستيقظ

(1) يوجد تطابق عجيب بين مفهومي الإرادة الطيبة عند (كانْت) والنية الطيبة في أخلاق الإسلام. وهناك من يرى تطابقاً بين آراء ابن حزم في الأخلاق وآراء كانت. والأمر يحتاج إلى تحقيق رغم أنه واضح. فابن حزم سبق كانت وعُرف في الأندلس.

البتة..! وهكذا نرى أن الذين يلتزمون بالأخلاق يمثلون انتصار ارادتهم على الطبيعة خلافاً للأشياء المادية التي تؤكد حتمية انصياعها لقوانين الطبيعة.

7- الواجب آمر مطلق يرى كنت أن الواجب آمر غير شرطي، فهذا مبدأ عنده ويستخرج من هذا المبدأ قواعد ثلاثة: اطلق عليها اسم قواعد الأوامر المطلقة:

1- **قاعدة التعميم:** «اعمل دائماً بحيث يكون في استطاعتك أن تجعل من فعلك قانوناً كلياً عاماً» وتقتضي هذه القاعدة أن يعمل المرء وكأنه يشرّع للبشرية.

2- **قاعدة الغائية:** «اعمل دائماً بحيث تعتبر الإنسانية في شخصك، وفي شخصيات الآخرين بوصفها غاية لا وسيلة»[1].

3- **قاعدة الحرية:** «اعمل بحيث تكون ارادتك ـ بوصفك كائناً عاقلاً ـ هي الإرادة المشرعة الكلية». وهذا يعني أن مصدر الإلزام سلطة باطنية تجعل من الإرادة الحرة مصدراً للأخلاق.

المُسلَّمات الكنتية:

لقد أكد كنت في كتابه (نقد العقل العملي) وبالاستناد إلى فكرة الواجب المطلق، أكّد أن الحياة الأخلاقية تستوجب التسليم بمسلمات يعجز العقل النظري المحض عن ادراكها، وهذه المُسلمات هي: حرية الإنسان ـ خلود الروح ـ وجود الله.

حرية الإنسان: تستوجب فكرةُ الواجب المطلق حرية الإنسان فلا معنى للواجب إلا بالنسبة لعقل حر.

خلود الروح: إذا التزم الإنسان بالأخلاق القائمة على الواجب، يكون قد اتجه نحو تحقيق طبيعته فكان فاضلاً، فهل تكتفي الفضيلة بذاتها دون أن تنال ما تستحقه؟.. أليس أقل ما تستحقه أن تنال

(1) ولهذه القاعدة نظير في أخلاق الإسلام حيث أمر المسلم بأن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه.

السعادة؟ إننا كثيراً ما نرى حولنا أناساً فاضلين لكنهم يعانون الأمرَّين في هذه الحياة!.. وفي مقابل هؤلاء نرى الكثيرين من الأشرار ينعمون بأنواع وأفانين من ضروب السعادة!! أو اللذات على الأقل. نعم إن السعادة في الدنيا ليست غايةً للفضيلة في نظر كنت ولكنها ستكون شيئاً عقيماً ولا معنى له إذا كانت تكافأ بالألم. إذن فليس هناك إلا مخرج واحد من هذا التناقض الأليم ألا وهو وجود يوم آخر، يوم تلتقي فيه السعادة مع الفضيلة فيكون الفاضلون سعداء حقاً ويكون السعداء فاضلين بما قدمت أيديهم[1]. وهذا يعني أنه لا بد من يوم آخر تقتضيه الأخلاق وتسلّم بوجوده، أي أن الروح خالدة.

وجود اللّه: إن التسليم بحرية الإنسان في اختيار مصيره إذا اقتضى اليوم الآخر، فكانت الروح خالدة، كان ذلك يقتضي وجود اللّه بالضرورة، فاللّه هو الضامن لحرية الإنسان ولعودته إلى الحياة في يوم الحساب.

إن الأخلاق التي ارتآها العقل بحريته تنهض على النظام الذي أراده اللّه، هذا العقل ليس إلا قبساً من نور اللّه. واللّه هو الأول والآخِر. أرأيت أيها القارئ أن في «كنت» الشيء الكثير مما تقرأ عند ابن حزم المسلم العالِم.

أخلاق القوة «نيتشه»:

على الرغم مما ابتلي به نيتشه من عناء شديد وعنت بسبب مرضه واعتلال صحته، فإنه قد اتخذ مبدأ فلسفياً يقوم على احترام القوة واحتقار الضعف، ولربما يكون اختياره لهذا المبدأ راجعاً إلى الروح الجرمانية الغنية التي أحاطت به منذ ولادته وظلت معه حتى وفاته عام

---

(1) قال تعالى: {**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**} [الجاثية: 21]. {**وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**} [الجاثية: 22].

1900، كما يرجع إلى اعجابه وتأثيره الكبير بالفيلسوف (شوبنهور) من جهة وبنظرية التطور عند (دارون) و(سبنسر) من جهة ثانية.

انطلق نيتشه من مبدأ النشوء والارتقاء (حجر الزاوية في فلسفة التطور)، ومضى يدعي أن تنازع البقاء الذي يسود عالم الحيوان ينظم ويسيطر على عالم الأخلاق لدى الإنسان.

اعتبر (نيتشه) أن الخير في القوة لا في الضعف، فمن الواجب أن تأخذ القوة مداها في تكوين الفرد والمجتمع. لقد اتفق الضعفاء وجمعوا صفوفهم كما تتجمع الطفيليات وذلك بهدف التغلب على الأقوياء وتقليم أظافرهم.

كتب (نيتشه) كتابه «هكذا تكلم زرادشت» ويقول فيه: «لقد تقرحت جفوني من شدة البكاء الذي استولى عليّ من شدة فرحي حين اكتشفت فكرة الإنسان الأعلى (السوبرمان) الإنسان الذي يملك فضائل الحياة كلها، الإنسان الذي يستقطب القوة ويحلق ببصره وبصيرته في السماء مثلما يفعل النسر القوي يفرد جناحيه ويتطلع أبداً صوب الشمس...».

إن الخير الإنساني هو القوة والقوة وحدها، ولندع صغيرات الأطفال يغرّدن ويغنين أن الخير في اللطف والرقة والجمال.

ولا يوافق نيتشه رجال الدين المسيحي حين يقولون أن الخير والشر يرجعان إلى النصوص الدينية التي بين أيديهم فهم كما يرى أبعد الناس عن فهم تلك النصوص أو تحقيق روحها، ولا يقبل نيتشه أن يكون الضمير أو العقل العملي العام (كما كان كنت يقول) المرجع في الأخلاق، بل يؤكد أن المرجع الحقيقي يتمثل في الطبيعة الإنسانية الخاصة وما تزخر به من غرائز. وهكذا يكون لكل ملة فلسفية تقديرها الخاص لأعمال الخير والشر.

يجب أن تدرك أن ما هو عدل لهذا الإنسان قد لا يكون عدلاً لذلك الإنسان الآخر.

إن المطالبة بأخلاق واحدة للجميع هو خسارة محققة للرجل القوي الممتاز. وكما يوجد فرق بين إنسان وإنسان آخر يجب أن تكون هناك فروق بين أخلاق وأخلاق.

أخلاق السادة:

تتمشى مع طبيعة تكوين السادة وهي من حقها ومن شأنها أن تعلو وتتجاوز أخلاق العبيد. يرى نيتشه أن أخلاق السادة (التي انطلقت مع الفاتحين الرومان) تمجد الفتح والإستيلاء، وتحتقر الرحمة والتسامح والضعف ويرى أن أخلاق العبيد هي أخلاق الخضوع والرضوخ والملق والنفاق وسائر ما يمت إلى الضعف بسبب من تسامح وحلم وإيثار.

إن العبيد الضعفاء وهم يمثلون الكيان المنحط في الإنسانية. يقلبون في نظر نيتشه الحقائق فيسمون الأشياء بغير أسمائها تراهم يسمّون العجز حِلماً، والخور والبعد عن الإنتقام عفواً، كما يسمّون خفض الجناح وضعف القلب تواضعاً. وهكذا يقلبون الأوضاع الطبيعية وهي القائمة على القوة من أجل أن يحموا أنفسهم وأهليهم، ويفتّوا في عضد السادة في الوقت الذي يحتاج فيه نجاح المجتمع إلى السادة لا إلى العبيد. فأنظر وتأمل وقارن.

النظرية البراغماتية:

أصل كلمة براغماتيسم يوناني وهي مأخوذة من Pragma التي تعني العمل. وبذلك يكون معنى براغماتيسم مذهب العمل، وعُرف في العربية بإسم مذهب الذرائع.

وُلد مذهب العمل في أمريكا مع كل من «تشارلز بيرز» و«وليم جيمس» و«جون ديوي».

بدأ «بيرز» بملاحظة أن الفكرة ـ أي فكرة ـ لا تحمل حقيقة في ذاتها، وإنما هي مشروع للعمل، إنها خطة للتأثير في البيئة، فرنين الأجراس في المحطة لاتعني القطار وحسب، وإنما تحرُكُ القطار هو الدليل على رنين الأجراس.

ويزيد على ذلك «ديوي» فيتناول صميم المذاهب العقلية بالنقد فيقول: «ليس العقل أداة للمعرفة، بل هو لخدمة الحياة ونموها. إنه أداة يستخدمها الإنسان في المحافظة على الحياة من جهة وفي تنمية هذه الحياة من جهة ثانية. ثم انتقل مذهب البراغماتيسم إلى انكلترا وفرنسا فأبان «شلر» الانكليزي أن للحقيقة مقياساً خاصاً يتلخص في خدمة الجنس البشري، فكل ما من شأنه أن يخدم الإنسانية ويأخذ بيدها إلى الحياة المثلى إنما هو حق، فالجنة حق لأنها تقدم خدمات ومنافع أخلاقية للبشر. (وليت الغربيين يؤمنون حقاً بهذا).

والخلاصة: فإن في فلسفة البراغماتيسم محاولة لفهم الحقيقة لا في حد ذاتها، بل من حيث نتائجها أو تطبيقاتها العملية وهي تنزل بالفلسفة من سماء التجريد والمجردات، لتجعلها على صلة بصميم العمل والحياة.

وهكذا أصبح الحق هو ما ينفع ويفيد، وأصبحت صحة الفكرة رهينة بفائدتها وصلاحيتها.

ومن الوجهة الأخلاقية: يرى البراغماتيون أن المنفعة مقياس الخير والشر. إنهم يتفقون مع السفسطائيين في رد القيم إلى الإنسان ولكنهم يخالفونهم في اعتبار الإنسان عامة وليس الإنسان الفرد، هو معيار القيم الأخلاقية ثم يصنفون المنافع فيرون أن منها العليا السامية والدنيا الوضيعة.

هذا وإن البراغماتيين يخالفون المذهب العقلي التقليدي الذي يفتش عن خير الإنسان المجرد أو المثل الأعلى المجرد عن الزمان والمكان ويرون أن الخير هو ما ينفع في موقفٍ ما من المواقف الإنسانية التي تحددها الظروف. وهذه المواقف لا يحددها العقل بطريقة مسبقة وقبل التجربة بل تتغير تبعاً للظروف والأحوال.

وتطبيقاً لهذا يرى البراغماتيون أن خير الجماعة ما يقدِّم خدمة للجماعة ولا شيء يفصل خير الأفراد عن خير الجماعة لأن من مصلحة الفرد أن يفتش عما ينفع مصالح المجموع.

نقد: أشد ما يؤخذ على المذهب البراغماتي مبالغته في الاهتمام بالنتائج وتعليق كل قيمة بنفعها. وقد يقتنع المرء لأول وهلة من صحة هذا المذهب، ولكنه يشعر بالتقزز حين يرى المجتمع الأمريكي قد راح يتحلل في كل النواحي، في البيت الذي أخذ الأبناء ينفصلون عن آبائهم، وفي الجوار الذي لا يُعنى بالجار ولا يهتم بما ينفع جاره، وبالدولة التي تحرص على ما يدعم نظامها المتردد والمتردي بين الجمهوريين والديمقراطيين. وهناك من يرى أن البراغماتية ليست إلا صورة جديدة من صور المذهب السفسطائي صيغت بقوالب جديدة.

% % %